١

أثر الجار والمجرور في متشابه القرآن اللفظي (مقاربة دلالية)

The effect of the neighbor and the neighbor in the verbal similarity of the Qur'an (semantic approach)

م. د. منى حامد النّعيميّ

Muna Hamed AL niaimi

muna.al.niaimi345@gmail.com

وزارة التربية/المديريّة العامّة لتربية بغداد/الرصافة الثانية

Ministry of Education / General Directorate of Education Baghdad / Rusafa II

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي-الجامعة العراقية
كلية التربية للبنات

الملخص

إنّ وجود حروف الجر بما تمتلكه من احتمالات نحوية دلالية انعكست على النصّ القرآني، إذ احتمل ولايزال يحتمل المتشابه اللفظي دلالات تضفي طابعًا مرنًا في قابلية النصّ القرآني على إظهار دلالات مكنونة في عقول المؤولين والمفسرين، هذا ما يجعل المتشابه اللفظي ميدانًا رحبًا لقراءات ومقاربات دلالية تستكمل ما بدأه العلماء.

وهذه المرونة الدلالية التي أضفاها حرف الجر للمفردات والجمل أسهمت في تشجيع العلماء على استنباط دلالات متعددة زخرت بها كتب التفسير والدلالة، زيادة على أنّ النصّ القرآني ذو طبيعة دلالية مرنة؛ وهذا سبب جعل القرآن الكريم ملجأً دلاليًا يحمي من زيغ العقل والنفس .

واختار البحث الموسوم بـ(أثر الجار والمجرور في متشابه القرآن اللفظي مقاربة دلالية) مجموعة من المسائل التي تسمح بالتأويل الدلالي للنصّ القرآني.

الكلمات المفتاحية: الجار والمجرور، متشابه القرآن، مقاربة دلالية.

Abstract

The presence of prepositions، with their grammatical and semantic possibilities، was reflected in the Qur'anic text، as the verbal analogy has and still bears connotations that give a flexible character in the ability of the Qur'anic text to show hidden connotations in the minds of the interpreters and commentators. Scientists started it.

This semantic flexibility that the preposition added to vocabulary and sentences contributed to encouraging scholars to derive multiple indications that the books of interpretation and semantics abounded in، in addition to the fact that the Qur'anic text has a flexible semantic nature; This is the reason for making the Noble Qur'an an indicative refuge that protects against deviation of the mind and soul.

The research، tagged with (the effect of the neighbor and the neighbor in the verbal analogy of the Qur'an، a semantic approach) chose a set of issues that allow semantic interpretation of the Qur'anic text.

key words: The neighbor and the drawer، similar to the Qur'an، a semantic approach.

المقدِّمة

حققت المتلازمة اللفظية من (الجار والمجرور) دلالة للنصّ القرآني رافقته دلالة عدم وجودها، وأثرهما على المتشابه اللفظي الذي تضمنه النصّ القرآني الكريم من استقلالية دلالية رَصَدَها المفسرون والبلاغيون بين طيّات الكتب.

فوجود هذه المتلازمة اللفظية جسَّد وجود دلالة مركبة، زيادة على دلالة حرف الجر التي هي بالأساس دلالة معجمية تكون منطلقًا لدلالة معنوية، إذن متعلقها النحوي ضاعف دلالتها، فكانت دلالة حرف الجر ركيزة يقف عليها المجرور لتوضيح دلالته.

لذا يؤكِّد (المتشابه اللفظي) من هذه الزاوية دقة القاعدة النحوية في عدم جواز الفصل بين الجار والمجرور، وهذا يعني أنّ دلالة حرف الجر مقترنة بوجود المجرور، وأنّ المجرور مرتبط دلاليًا بحرف الجر؛ لذلك صحّ القول: بوجود التلازم بينهما، وهو التلازم اللفظي من أجل تحقق التلازم الدلالي.

وبسبب تعدد دلالة الحروف، كان للعلماء بصمات دلالية متعددة قابلة للأخذ والرد والإضافة، فكانت هذه الدلالات متناثرة بين كتب التفسير العامة والخاصة بالمتشابه اللفظي.

والمسائل التي سنعرض لها تجسِّد أثر وجود المتلازمات اللفظية من (الجار والمجرور) دلاليًا على المتشابهات اللفظية.

وتوافقًا مع حدود البحث الموسوم بـ (أثر الجار والمجرور في متشابه القرآن اللفظي مقاربة دلالية) وقع الاختيار على مجموعة من المتشابهات غطّاها العلماء بحثًا ودراسة، وهذا عمل مكمِّل لما بدأناه في مرحلة الدكتوراه من تأويل المتشابه اللفظي.

الأولى: ورد الجار والمجرور ﴿ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ ﴾ في قوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ ﴾[آل عمران/٨٩]، في حين لم يرد في قوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ ﴾ [البقرة/١٦٠].

مِن العلماء مَن يرى أنّ الالتباس أو التكرار هو السبب في عدم ذكر قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ ﴾ في سورة البقرة؛ إذ يسبقها قوله تعالى: ﴿ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ ﴾ [البقرة/١٥٩]، إذ تحمل العبارتان الدلالة نفسها[1].

أمّا البقاعي (ت٨٨٥هـ) فقال: «ولمّا كان التائب لم يستغرق زمان ما بعد الإيمان بالكفر، وكانت التوبة مقبولة ولو قل زمنها أثبت الجار فقال: ﴿ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ ﴾»[2].

فيما أرى أنّ آية سورة آل عمران (٨٩) مرتبطة بما سبقها من آيات من قوله تعالى: ﴿ كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقّٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٦ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴾ آل عمران/٨٦- ٨٧].

(١) البرهان في توجيه متشابه القرآن:٢٦، وبصائر ذوي التمييز:١/ ١٤٩، وفتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن:٤٠، المسألة (٦٨).

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٢/ ١٢٢.

فقوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ يعني وقوع الكفر الفعلي بعد الإيمان وهذا الكفر استغرق وقتًا استحق أن يكون جزاؤهم لعنةُ الله والملائكة والناس أجمعين. ثَمّ الخلود في هذه اللعنة ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾، ثَمّ جاءت رحمة الله بأن يستثني مَن تاب بعد كفره وأصلح فقد شملته مغفرة ورحمة الله تعالى.

وأمّا حذف ﴿مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ في سورة البقرة، فقد يكون عدم وجود زمن طويل لكتمان ما أنزل الله من البينات والهدى، ومن الطبيعي أن لا يستطيعوا إطالة ذلك؛ لأنّ الكتاب واضح بيِّن عند الناس، لذا اسرعوا بالتوبة والإصلاح، وبيان الحق فكان جزاؤهم أن تاب الله عليهم. والله أعلم.

الثانية: وردت ﴿لَكُمْ﴾ في قوله تعالى:﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾[آل عمران/١٢٦]، فيما لم يرد في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾[الأنفال/١٠].

تباينت آراء المفسرين والبلاغيين في تأويل هذه المتلازمة اللفظية على النحو الآتي:

رأى ثلّة من العلماء أنّ آية آل عمران جاءت على الأصل، بخلاف الآية الثانية، إذ تقدمها لفظ ﴿لَكُمْ﴾ ما يغني من إعادتها بلفظها ومعناها وهو قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال/٩][1].

فيما رأى البقاعي(ت٨٨٥هـ) أنّ نصرة المسلمين في هذه الغزوة ظاهرة جدًا، من راقبها لم يهب شيئًا ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ ولم يحتج إلى تقييد بأن يُقال: لكم، واختلف الأمر في قصة أُحُد، فقد كان المقتول منهم أكثر من المقتول من الكفّار فلولا قوله: ﴿لَكُمْ﴾ لربّما طرق بعض الأوهام حين سماع أول الكلام أنّ الإمداد بشرى للكفار[2].

ورأى الغرناطي(ت٧٠٨هـ) أنّ سورة آل عمران تقدمها ذكر فئتين المؤمنة والكافرة، وخصّ الطائفة المؤمنة بالبشارة وأنّها لأولياء الله تعالى فقال:﴿إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾ وأمّا آية سورة الأنفال فالحديث فيها خاص بالمؤمنين لذا لم يذكر شبه الجملة ﴿لَكُمْ﴾[3].

واحتمل عند أبي حيّان (ت٧٤٥هـ): أنّ سورة الأنفال بُنيت على الاختصار، بينما سورة آل عمران بُنيت على الإطناب والإسهاب؛ لأنّ القصة مكمّلة فناسب إيناسهم بالخطاب المواجه[4].

وقد يكون حذف شبه الجملة من الجار والمجرور ﴿لَكُمْ﴾ من الأنفال؛ لاحتمال أنّ الله تعالى وصف استجابته لاستغاثتهم بأن يمدهم بألف من الملائكة، وهذا ممّا يستحق أن يوصف بالبشرى لكلّ مستغيث بالله تعالى.

---

(١) ينظر: درّة التنزيل وغرّة التأويل:١/ ٣٩٠، والبرهان:٣٧، وكشف المعاني:١٣٢، وبصائر ذوي التمييز:١/ ١٦٦.

(٢) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور:٣/ ١٩١و ٢/ ١٥٠.

(٣) ينظر: ملاك التأويل: ١/ ٣١٤- ٣١٥.

(٤) الدر المصون: ٣/ ٣٩٠.

ففي الكلام خصوصية لهم، وعموم لكلّ من استغاث بالله تعالى، بأن يبشِّره بالاستجابة للاستغاثة الحقيقية.

أمّا وجود ﴿لَكُمْ﴾ في آل عمران فقد تحمل خصوصية للطائفة المؤمنة من دون غيرها.

فقوله تعالى:﴿ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [آل عمران/١٢٢]، يؤكِّد وجود طائفتين تتقاتل مع بعضها، فبشَّر الله تعالى الطائفة المؤمنة بالنصر فخصّهم بذكر متلازمة ﴿لَكُمْ﴾. والله أعلم.

الثالثة: استدعت دلالة الآية ذكر الجار والمجرور ﴿لَكُمْ﴾ في قوله تعالى:﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ [النمل/٦٠]، وكانت ضرورة دلالة آية أخرى عدم ذكره في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾[إبراهيم/٣٢].

يتفق جمعٌ من العلماء ومنهم الخطيب الإسكافي(ت٤٢٠هـ) على: «إنّ ﴿لَكُمْ﴾ في آخر الآية الثانية مذكورة؛ لأنّه قال:﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ﴾[إبراهيم/٣٢] فأغنى ذكرها هناك عن ذكرها أولًا، والآية الأولى لمّا لم يكن في آخرها ذكر أنّه فعل لهم ذكر في أولها ﴿لَكُمْ﴾؛ لأنّ بعدها: ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ [النمل/٦٠]، وليست ﴿لَكُمْ﴾ في قوله: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ﴾ بالنمل/٦٠] تكفي من ذكرها في أولها؛ لأنّها في معنى غير معنى: خلق لكم أصناف النعم﴾[1].

ورأى غيرهم أنّ المقام في السورتين مختلف؛ فسورة إبراهيم تقدمها الحديث عن عبادة الله بقوله: ﴿ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾[إبراهيم:٣١]، وهم بذلك في موضع الاعتراف بأنّ الله غني عن عباده وما يمنُّ به عليهم هو لهم فليسوا في حاجة إلى ذكر ﴿لَكُمْ﴾ بخلاف موضع سورة النمل فقد تقدمها ﴿ ءَٱللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النمل/٥٩]، فلمّا تضمنت تعنيفًا للمشركين وتقريعهم وتوبيخهم على سوء مرتكبهم وعَماهم عن التفكير والاعتبار فقيل: ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم ﴾ [النمل/٦٠] فحصل تنبيههم وإعلامهم أنّ إنزال الماء من السماء إنّما هو لهم على سبيل الامتنان وأنّه لاحاجة به سبحانه إليه[2].

وعندي احتمال أول في سورة إبراهيم قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ بنزول الماء من السماء توضحت الغاية من نزوله فبه أخرج الثمرات ومنه تكونت البحار والأنهار، فكلّها تسخرت لخدمة الإنسان بعد نزول الماء من السماء.

أي: أنّ نزول الماء تلاه تفصيل لما نتج عنه من خيرات للعباد مُقَيَّدة بـ ﴿لَكُمْ﴾.

وقد يكون في شبه الجملة ﴿لَكُمْ﴾ يؤدي إلى توالي شبه الجملة الذي لا يخدم القاعدة النحوية .

---

(١) درّة التنزيل: ٢/ ٨١٤- ٨١٥، وينظر البرهان:٩٣، وكشف المعاني: ٢٢١- ٢٢٢، وفتح الرحمن:٢١٠/ المسألة (٥).

(٢) ينظر: ملاك التأويل:٢/ ٧١٦- ٧١٧، والبحر المحيط:١٦/ ٤٦٣، ونظم الدرر:٥/ ٤٣٧.

أمّا الاحتمال الآخر: أنّ الحديث في سورة إبراهيم كون الفعل (أنزل) معلّق بالفعل قبله (خَلَقَ) وقد تنازع كلٌّ منهما الفاعل (الله) .

أي: أنّ الفاعل (الله) تقدم الفعلين (خَلَقَ) و(أنزل)، فهو بصدد الحديث عن فضل الله تعالى بخلق السموات والأرض وإنزال الماء من السماء. فقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ إخبار عن قدرته تعالى وفضله. فليس بالدلالة هنا حاجة إلى ذكر ﴿ لَكُمْ ﴾.

بينما في سورة [النمل/٦٠]، فدلالة الآية تشير إلى أنّ إنزال الماء من السماء كان لغاية خدمة الناس، فكأنّه تأكيد على أنّ الماء النازل من السماء هو للإنسان أولًا يستفيد منه لإنبات الحدائق وما فيها من أشجار. والله أعلم.

الرابعة: ورد الجار والمجرور ﴿لَكُمْ﴾ في قوله تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ [الفتح/١١]، بينما لم ترد ﴿لَكُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ [المائدة/١٧].

تابع بعض العلماء رأي الإسكافي في هذه المسألة وهو أنّ بين الآيتين فرقًا من جهة العموم والخصوص، وأنّ الخصوص لا يقتضي الذكر للتبيين، فآية سورة الفتح نزلت في قوم يخلّفوا عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، وأمّا آية سورة المائدة فعامة، إذ لم يختص بفريق من دون فريق، بل هي فيمن كفر بالله تعالى وأدّعى أنّ المسيح (عليه السلام) هو الله، ولذلك قال: ﴿ إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾[المائدة/١٧]، فلما جاءت عامة لم يذكر شبه الجملة ﴿لَكُمْ﴾[1].

ويُحتمل عندي أنّ الاستفهام في سورة المائدة عام لكلّ الخليقة تضمن نفي ضمني بعدم وجود أحد غيرُ الله تعالى، فهو الذي يملك كلّ شيء في هذا الكون.

ولذلك استغنى عن ذكر ﴿لَكُمْ﴾ التي تحمل خصوصية في دلالتها على فئة معينة.

في حين ورد في سورة الفتح استفهام خاص ونفي ضمني بعدم امتلاك أي مخلوق قدرة على جلب الضرّ أو النفع لكم؛ ولذلك قيّد الكلام بشبه الجملة ﴿لَكُمْ﴾. والله أعلم.

الخامسة: ورد الجار والمجرور ﴿مِنْهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ [النحل/١٤]، واقتضت الدلالة حذفه في قوله تعالى: ﴿ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ [فاطر/١٢].

إنّ معنى الكلام عند الغرناطي(ت٧٠٨هـ): «في قوله: ﴿تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ مستقل، لا ايهام فيه ولا احتمال؛ لأنّ تقدير الكلام: مِن كلّ البحر أكلكم واستخراج الحلية للباس، فالكلام في قوة المبتدأ والخبر، لا يوهم خلاف ما ذكر، وأمّا قوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ

(١) درّة التنزيل:٣/ ١١٩٥- ١١٩٦، والبرهان:١٧٦، وملاك التأويل:١/ ٣٨٢، وكشف المعاني: ١٤٧.

﴿لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [النحل/١٤] فلو سقط هنا المجرور الذى هو ﴿مِنْهُ﴾ لكان مجالًا للاحتمال، لو قيل: وتستخرجوا حلية لم يكن بالنصّ في أن استخراج الحلية من البحر وان كان ظاهرًا الّا أن هذا القدر من الاحتمال منقدح هنا وغير منقدح في آية فاطر»[1].

ورأى ابن جماعة(ت٧٣٣هـ) أنّ آية سورة النحل سيقت لتعدد النعم على الخلق، وآية سورة فاطر سيقت لبيان القدرة والحكمة بدليل قوله تعالى:﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ ﴾ وقوله تعالى:﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ [فاطر:١١]، فتكرر ﴿مِنْهُ﴾ في آية النحل لتحقق المِنَّة والنعمة[2].

وأرى الحديث في سورة النحل عن تسخير البحر بصفة عامة ولم يفصِّل أنواع البحر ولكنّ التوكيد جاء فيما بعد فذكر ﴿ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ ﴾ و ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ﴾. فالآية تركز على أنّ الأكل والاستخراج من البحر فأعاد ذكر ﴿مِنْهُ﴾ في الجملتين.

بينما ورد الحديث في سورة فاطر عن أنواع البحر فكان ﴿ عَذْبٌ فُرَاتٌ ﴾ و﴿مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ وتبعهما بـ﴿ وَمِن كُلٍّ ﴾ التي سبقت ﴿ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ و ﴿ وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ .

فعدم ذكر ﴿مِنْهُ ﴾ في هذه الآية؛ لأنّ الحديث عن بحران وليس بحر واحد، فاستغنى بذكر ﴿ وَمِن كُلٍّ﴾ الدالة على التثنية لنوعي البحر، فلا يُراد التأكيد على منافع البحر، وإنّما على أنواعه. والله أعلم .

السادسة: أبان قوله تعالى:﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾[الأعراف/٨٦] ضرورة وجود الجار والمجرور ﴿ بِهِۦ﴾ لتحقق دلالة يستغني عنها في قوله تعالى:﴿ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ [آل عمران/٩٩].

تبنّى بعض العلماء توجيه المسألة بذكر ﴿بِهِۦ﴾؛ لأنّ القياس: آمنَ به مثلما وردت في سورة الأعراف، بخلاف سورة آل عمران لم تُذكر﴿بِهِۦ﴾ لموافقة قوله تعالى: ﴿ وَمَن كَفَرَ ﴾ [آل عمران/٩٧]، فالقياس أيضًا: كفر به[3].

وهناك رأي آخر يرى أنّ ذكر ﴿ بِهِۦ ﴾ في سورة الأعراف دلالة على تقبيح أمرهم، وعظم ما يصدّون به[4].

وأرى أنّ ذكر قوم شعيب في قوله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَٰطٍ

(١) ملاك التأويل:٢/ ٧٣٦- ٧٣٧ .

(٢) كشف المعاني:٢٢٦.

(٣) ينظر: البرهان:٣٧، وبصائر ذوي التمييز:١/ ١٦٥، وفتح الرحمن:٧٠/ المسألة (٣٣).

(٤) تفسير الكشاف:٢/ ١٢٤، والبحر المحيط:١٠/ ١٩٣.

تُوعِدُونَ ﴾[الأعراف:٨٥-٨٦] التي وردت فيها جملة من الأوامر والنواهي ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ ﴾ ﴿ فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ ﴾ ﴿ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ ﴾ ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ ﴿ وَلَا تَقۡعُدُواْ ﴾ وهذه أمور لا يستجيب لها إلّا مَن آمن بالله تعالى فعلًا، فذكّرهم بضرورة صدقهم في إيمانهم بالله تعالى لذا استلزم ذكر ﴿بِهِۦ﴾، فهذه قيود لا يتمسك بها إلّا مَن صَدُق إيمانه بالله تعالى.

فالدلالة استدعت الاهتمام بالإيمان بالله تعالى فذكر ﴿بِهِۦ﴾، بينما في آل عمران النداء موجه لأهل الكتاب عامة بسؤالهم عن سبب صدّهم وإعراضهم عن طريق الله تعالى فاتجه الخطاب نحو مَن آمَن من أهل الكتاب وليس للتركيز على ذات الله تعالى. فلم تستوجب دلالة النصّ على ذكر متلازمة الجار والمجرور ﴿بِهِۦ﴾. والله أعلم.

السابعة: تباينت آراء العلماء في تأويل مجيء الجار والمجرور ﴿مِنۡهُمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ ﴾ [الأعراف/١٦٢]، وعدم مجيئه في قوله تعالى: ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ ﴾ [البقرة/٥٩].

جاء أنّ المعنى في سورة الأعراف يقتضي ذكر ﴿مِنۡهُمۡ﴾، وهو أنّ أول الحكاية مبني على التخصيص والتمييز؛ وذلك لقوله تعالى: ﴿ وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ﴾ [الأعراف/١٥٩]، وقوله تعالى: ﴿ وَقَطَّعۡنَٰهُمُ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُمَمٗاۖ مِّنۡهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنۡهُمۡ دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ [١٦٨]، فقابل بين التخصيص في الأمة الهادية للحقّ والتبعيض الذي في مقابلته وهو الذين ظلموا.

وأمّا في سورة البقرة فلم تنبنِ الآيات التي قبل قوله تعالى: ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ ﴾ على التخصيص والتبعيض[1].

وأوجز الغرناطي(ت٧٠٨هـ) رأيه بأنّ آية سورة البقرة أفادت العموم، وآية سورة الأعراف أفادت التخصيص فذكر قوله: ﴿مِنۡهُمۡ ﴾[2].

ويتجه الاحتمال عندي أنّها جاء في سورة الأعراف أثار قضية عذاب قوم موسى(عليه السلام) إذ أرسل عليهم رجزًا من السماء بسبب ظلمهم حين بدلوا قول الله تعالى: ﴿ وَقَطَّعۡنَٰهُمُ ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمٗاۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۚ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡغَمَٰمَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ١٦٠ وَإِذۡ قِيلَ لَهُمُ ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ وَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ وَقُولُواْ حِطَّةٞ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٰتِكُمۡۚ سَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [الأعراف/١٦٠- ١٦١]، فذَكَرَ

(١) ينظر: درّة التنزيل:١/ ٢٤٤- ٢٤٥، والبرهان:٢٠- ٢١، وكشف المعاني:٩٧- ٩٨، وبصائر ذوي التمييز:١/ ١٤٣، وفتح الرحمن:٢٨/ المسألة (٢٩).

(٢) ملاك التأويل:١/ ٢٠٨.

متلازمة ﴿ مِنْهُمْ ﴾ لتحديد الفئة المعنية منهم بالظلم والتي استحقت عذاب الرجز من السماء.

بينما في سورة البقرة إذ لم يرد قيد ﴿ مِنْهُمْ ﴾ فقد يقصد قوم موسى كلّهم فلم يستثنِ أحدًا منهم. والله أعلم.

الثامنة: وردت متلازمة الجار والمجرور ﴿ مِن دُونِهِۦ ﴾ في قوله تعالى: ﴿ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ﴾[النحل/٣٥]، في حين لم ترد في قوله تعالى: ﴿ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

تعددت آراء العلماء في تأويل المسألة فكان رأي الخطيب الإسكافي (ت٤٢٠هـ)، أنّه من المستنكر أن يعبدوا غير الله شيئًا، فتمام المعنى بذكر قوله: ﴿ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ﴾[١].

ورأي الكرماني (ت٥٠٥هـ) أنّ «زيادة ﴿ مِن دُونِهِۦ ﴾ مرتين؛ لأنّ لفظ الإشراك يدلُّ على إثبات شريكٍ لا يجوز إثباته، ودلّ على تحريم أشياء وتحليل أشياء من دون الله، فلم يحتج إلى ﴿ مِن دُونِهِۦ ﴾... لتطرّد الآية في حكم التخفيف»[٢]. وهذا رأي الأنصاري من دون الإشارة إلى ذلك[٣].

ورأى الغرناطي(ت٧٠٨هـ) أنّ المقصود واحد من الآيتين مع وجود الاختلاف بينهما، فما لم يكن في سورة الأنعام؛ فلأنّه لم يكن ليلائم ذلك الإسهاب وطول الكلام إذا توجه فيما يرد اعتراضًا أن يؤخر وهذا هو الإيجاز[٤].

«وأمّا آية النحل فلم يتقدمها خطاب لغير العرب مؤمنهم وكافرهم، وقد أطنب في تذكيرهم ووعظهم، وقد بسط لهم ذكر نِعَم ودلائل، فناسب ذلك الإسهاب الوارد فيها»[٥].

ومنهم مَن رأى أنّ «لفظ الإشراك مؤذن بالشريك فلم يقل: ﴿ مِن دُونِهِۦ ﴾ بخلاف: ﴿ عَبَدْنَا ﴾ ليس مؤذنًا بإشراك غيره فلذلك جاء: ﴿ مِن دُونِهِۦ ﴾»[٦].

ورأى أبو حيان الأندلسي(ت٧٤٥هـ): «أنّ لفظ العبادة يصحُّ أن يُنسب إلى إفراد الله بها، وهذا ليس بمستنكر، بل المستنكر عبادة شيءٍ غير الله أو شيءٍ مع الله فناسب هنا ذكر ﴿ مِن دُونِهِۦ ﴾ مع العبادة»[٧].

فيما اعتمد البقاعي(ت٨٨٥هـ) الرتب في تأويله فقال: «لمّا كانت الرتب كلّها متقاصرة عن رتبته وكانت متفاوتة، وكان ما يعبدونه من الأصنام في أدناها رتبة، أدخلوا الجار فقالوا: ﴿ مِن دُونِهِۦ ﴾ وأغرقوا في النفي فقالوا: ﴿ مِن شَىْءٍ ﴾ أي من الأشياء ﴿ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا ﴾ من قبلنا، ولمّا ذكروا الأصل أتبعوه الفرع فقالوا: ﴿ وَلَا حَرَّمْنَا ﴾ أي على أنفسنا ﴿ مِن دُونِهِۦ ﴾ أي دون أمره من شيء»[٨].

(١) ينظر: درّة التنزيل: ١/ ٥٢٥.
(٢) البرهان: ٥٥.
(٣) ينظر: فتح الرحمن: ١٣٠- ١٣١.
(٤) ينظر: ملاك التأويل: ١/ ٤٧٨.
(٥) ملاك التأويل: ١/ ٤٧٨.
(٦) كشف المعاني: ١٦٨.
(٧) البحر المحيط: ٩/ ٤٧٠.
(٨) نظم الدرر: ٤/ ٢٦٦.

ولأنّ كلامه تعالى قابل للتأويل نجد أنّ الإشارة في الآية الأولى (النحل/٣٥) موجهة نحو وحدانية العبادة، وأنّهم يعبدون غير الله تعالى بمشيئته، ولو شاء لهداهم إلى سواء السبيل، وهذا يعني اعترافهم أنّ عبادة الله أو الشرك به قدر يقضيه تعالى على خلقه. قال: ﴿ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[الأنعام/ ١٤٩]، ثمّ اعترافهم بأنّهم مشركون، ولو عقلوا لعرفوا أنّ الله سبحانه وتعالى يهدي إلى الحقّ وأوله العبادة، فذكر ﴿ مِن دُونِهِۦ ﴾ ليتجه الحديث نحو موضوع عبادة غير الله وهو الشرك.

أي: قول المشركين إنّ مشيئة الله تعالى هي التي أرادت لهم الإشراك في عبادته، وكأنّهم يريدوا أن يقولوا أنّ إشراكهم هو طاعة لله تعالى، فالدلالة في الآية تتجه نحو عدم توحيد الله تعالى في عبادته.

وفي الآية الأخرى [الأنعام/ ١٤٨] اتجه الحديث نحو الأشياء التي يشركون بها مع الله تعالى والأشياء المحرمة عليهم بمشيئته، ولو كان الأمر بأيديهم لأحلّوا كلّ شيءٍ، وهنا التناقض في كلامهم! فكيف يطيعوا الله تعالى في موضوع تحريم بعض الأشياء وهم مشركون به؟ أفليست الطاعة للأوامر والنواهي تعدّ عبادة لله تعالى؟ فيترتب على قولهم هذا أنّهم في موضوع العبادة يطيعون أهواءهم، وفي موضوع التحريم للأشياء يطيعون الله تعالى، فهم تائهون بين الشرك به تعالى والطاعة لأوامره؛ ولذلك لم تكن الحاجة إلى ذكر ﴿ مِن دُونِهِۦ ﴾. فعندما كانت الإشارة إلى ثنائية الشرك ذكروا شركهم مع آبائهم؛ إذ ليس فيها دلالة تقتضي الذكر فالمعنى محقق أنّ الشرك بالله تعالى امتدّ من الآباء إلى الأبناء وأنّ استمرارهم على الشرك عَزُوهُ إلى إرادة الله تعالى بدليل ﴿ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ ﴾. والله أعلم.

التاسعة: استدعت دلالة الآية ذكر متلازمة ﴿ مِنْ غَيْرِ ﴾ في قوله تعالى: ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ [الحج/٢٢] وكانت الضرورة الدلالية تقتضي بعدم ذكرها في قوله تعال: ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ [السجدة/ ٢٠].

فذكر الكرماني أنّ ما ورد في سورة الحج تقتضيه الآيات ما قبلها «فمن كان في ثيابٍ من نارٍ وفوق رأسه حميم يذوب من حره أحشاء بطنه حتى يذوب ظاهر جلده، وعليه موكلون يضربونه بمقامع من حديد، كيف يجد سرورًا، أو يجد متنفسًا من تلك الكرب التي عليه وليس في (السجدة) من هذا ذكر»[١].

فيما رأى الغرناطي أنّ تفصيل حالهم في آية سورة الحج مناسب لزيادة ﴿ مِنْ غَمٍّ ﴾. بينما لم يقع تفصيل بين الطرفين، في آية سورة السجدة وإنّما أوجز الكلام مناسبة الإيجاز[٢].

ورأى ابن جماعة أنّ ذكر تفاصيل أنواع العذاب ناسب قوله: ﴿ مِنْ غَمٍّ ﴾، وحينما وصف أنواع نعيم الجنة المقابلة ذكر أنواع عذاب النار فكان الاقتصار على المقابلة[٣].

(١) البرهان: ٥٥، وينظر: فتح الرحمن: ٢٧٥.
(٢) ينظر: ملاك التأويل: ٢/ ٨٥٩.
(٣) ينظر: كشف المعاني: ٢٦١.

ونظر البقاعي(ت٨٥٨هـ) أنّه: «لمّا كان السياق لخصومه أولياء الله المتصفين بما هو مقصود السورة من التقوى للكفار، المنابذين لها بكلّ اعتبار، اقتضى ذلك بشارة للأولياء ونذارة للأعداء قوله زيادة على ما في السجدة: ﴿مِنْ غَمٍّ﴾ عظيم لا يعلم قدر عظمه إلّا الله ﴿أُعِيدُوا﴾ كلّ مَن ﴿فِيهَا﴾ كأنّهم يضربون بلهيب النار فيرفعهم حتى إذا كانوا في أعلاها ضربوا بالمقامع فهووا فيها سبعين خريفًا»[1].

وبما أنّ (الغمّ) همٌّ وحزنٌ، ففي آية سورة الحج بيان لسبب إرادتهم الخروج منها، بينما في آية سورة السجدة فإنّهم يريدون الخروج من دون بيان السبب، وفيه دلالة على أنّ النار لا يُسكن فيها في كلّ الأحوال.

وتوضيحًا لذلك فإنّ سورة الحج ذكرت متلازمة ﴿مِنْ غَمٍّ﴾، بعد أن وصفت الآيات التي قبلها حال الكافرين، وقد قُطِّعت لهم ثياب من نار، ثم يُصبُّ الحميم من فوق رؤوسهم، فيصهر ما في بطونهم والجلود، ثمّ يضربون بمقامع من حديد، ولو أرادوا أن يخرجوا من هذه الأجواء التي فيها غمٌّ وهمٌّ وحزنٌ محاولين الهروب منها فربّما تصوروا هي ليست خلود في النار وإنّما هي أجواء من العذاب، فلم يتمكنوا من مغادرتها، إذ كلّما حاولوا الخلاص، أُعيدوا فيها ليذوقوا عذاب الحريق، فقد تكون ظروف وأجواء مؤقتة؛ لغرض تأديبهم وعبرة لغيرهم.

فوجود متلازمة ﴿مِنْ غَمٍّ﴾ قد تعني ضرورة وصف حالهم، فهذه الأجواء التي هم فيها لم تفقدهم عقولهم، فقد أدركوا حالهم فحاولوا أن يخرجوا ولكن عجزوا عن ذلك.

أمّا في سورة السجدة فقد بيَّنت الآية مأوى الفاسقين إلى النار، إذ لم تحدد أوصاف حالهم بل هي النار بكلّ ما فيها ممّا ذُكِر في آية الحج وما لم يُذكر، فهم حاولوا أن يخرجوا أيضًا من النار ﴿أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾، فلم يستلزم ذكر الغم همًا وحزنًا؛ وذلك أنّه حينما يكون مستقرهم في النار فحالهم واضح. والله أعلم.

العاشرة: أبان قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ﴾ [النور/٣٤] ضرورة وجود ﴿إِلَيْكُمْ﴾ لتحقق دلالة يستغني عنها في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ﴾[النور/٤٦].

اقتضى ذكر ﴿إِلَيْكُمْ﴾؛ «ليعلم أنّ المخاطبين بالآية الثانية هم المخاطبون بالآية الأولى، وأمّا الثانية فاستئناف كلام؛ فخص بالحذف»[2].

وأضاف ابن جماعة(ت٧٣٣هـ): «أنّ الأولى بعدما قدمه قبلها من المواعظ والآداب والأحكام، فناسب العطف عليه بـ(الواو) و(إلى) ثم ابتدأ كلاما مستأنفًا بعدما قدمه من عظيم آياته بإرسال الرياح والمطر وإنزال الماء والبرد قوله تعالى: ﴿إِلَيْكُمْ﴾ في الأولى دون الثانية؛ لأنّها عقيب تأديب المؤمنين وإرشادهم

(١) نظم الدرر: ٥/ ١٤٣.

(٢) البرهان: ١٢٩.

فكأنّها خاصة بهم. والثانية عامة؛ لأنّ آيات القدرة للكلّ غير خاصة، ولذلك قال تعالى بعده: ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾»[1].

فيما رأى البقاعي(ت٨٨٥هـ) أنّه: «لمّا أتمّ سبحانه هذه الآيات في براءة عائشة رضي الله عنها ومقدماتها وخواتيمها، قال عاطفًا على قوله أولها: ﴿وَأَنزَلۡنَا فِيهَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لَّعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾: ﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ﴾ أي بما لنا من العظمة ترغيبًا لكم وترهيبًا ﴿إِلَيۡكُمۡ﴾ أي لتتعظوا ﴿ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖ﴾ مفصل فيها الحق من الباطل»[2].

وأمّا الأنصاري(ت٩٢٥هـ) فرأى أنّ ذكر «﴿إِلَيۡكُمۡ﴾؛ ليُفيد أنّ الآيات المبينات، نزلت في المخاطبين في الجمل السابقة، وما ذُكِر بعدُ خالٍ عن ذلك، فناسبه الاستئناف والحذف»[3].

وربّما تشير الآية الأولى إلى وجود حديث مباشر مع فئة المتقين بدليل أنّ الآية انتهت بقوله تعالى: ﴿وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾، ولذلك ذكر متلازمة الجار والمجرور ﴿إِلَيۡكُمۡ﴾ وهذه الآية تؤكد ما جاء في بداية السورة من قوله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلۡنَٰهَا وَفَرَضۡنَٰهَا وَأَنزَلۡنَا فِيهَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لَّعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾[الآية/١] التي كانت عامة فيها آيات بينات للجميع.

ثمّ أورد فيها سبحانه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖ وَمَثَلٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾[الآية/ ٣٤]. فوجود كلمة (المتقين) تحدد خصوصية هذه الآيات بأنّها لفئة المتقين لغرض وعظهم.

بينما في الآية الثانية(٤٦) جاء الإخبار عامًا بإنزال الآيات البينات عليهم فقد سبقها آيات دالة على العموم في القصد والغاية، فكأنّها تذكير دلالي لما سبق للجميع دون تخصيص بفئة معينة أو غرض معين. والله أعلم.

الحادية عشرة: ورد الجار والمجرور﴿بِسِحۡرِهِۦ﴾ في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِۦ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ﴾ [الشعراء/٣٥]، بينما استدعت الدلالة عدم ذكره في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُمۡ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ﴾ [الأعراف/ ١١٠].

جاء عدم الوضوح في رأي الكرماني عندما قال: «أنّ الآية الأولى في هذه السورة بنيت على الاقتصار. وكذلك الآية الثانية؛ ولأنّ لفظ الساحر يدل على السحر»[4]. وهذا عين ما ذهب إليه صاحب البحر المحيط فيما يخصّ الآية الأولى[5].

أمّا الغرناطي فيرى: }أنّ زيادة ﴿بِسِحۡرِهِۦ﴾ في الشعراء: لأنّه من قول فرعون طاغية موسى (عليه السلام)، وهو أحنق عليه من الملأ بجمعهم، وأعظمهم بغضًا له وكراهة لما جاء به موسى، فأكد بقوله: ﴿بِسِحۡرِهِۦ﴾ طمعًا في صغوهم لقوله والثبات على مذهبه الشنيع ومرتكبه، ورجاء أن يعتقد الملأ

(١) كشف المعاني: ٢٧٢.
(٢) نظم الدرر: ٥/ ٢٦٣ .
(٣) فتح الرحمن: ٢٨٧.
(٤) البرهان: ٦٦.
(٥) البحر المحيط: ٩/ ٤٧٠.

من قومه أنّ آية موسى (عليه السلام) سحر لا توقف فيها، فلم يقنع بقوله لملئه: أنّه لساحر عليم وأنّه يريد إخراجهم من أرضهم حتى سجل على ذلك وأكده طمعًا في قبول باطله بقوله:﴿ بِسِحْرِهِۦ ﴾ فزيادة ﴿بِسِحْرِهِۦ ﴾. لتبين حال الملأ من حال فرعون المتولي كبير الأمر، والتناسب بيِّن وكلّ في السورتين وارد على ما يجب والعكس غير مناسب﴾[1].

فيما رأى الأنصاري أنّ الآية في الأعراف بُنيت على الاختصار؛ ولأنّ ما قبل الآية هنا وهو قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ يدل على السحر، بخلاف الآية ثمّ[2].

وقد تكون الآية الأولى بيان لكيفية إخراجهم من أرضهم، وذلك من طريق السحر حصرًا وهذا يتطلّب تدبيرًا لمواجهة سحره. فقد ورد ذكر﴿ بِسِحْرِهِۦ ﴾ في سورة الشعراء التي كانت من كلام فرعون نفسه، فكأنّه أراد تخويف قومه بفعل السحر الذي اتهم به موسى(عليه السلام)؛ ليستجيبوا له ويتعاونوا على إيذاءه (عليه السلام)، فقد يكون ما ورد في الأعراف لم يُجدِ نفعًا، فلم يتخذوا قرارًا بشأنه، فكان إصرار فرعون على اتفاقه مع قومه تطلّب أن يخيفهم بفعل السحر مباشرة؛ ليجمعهم حوله.

أمّا في الآية الأخرى فالبلاغ فيها إرادة إخراج قوم فرعون من أرضهم بأية طريقة وفي كلّ الأحوال، وهذا يجعلهم في حيرة كيفية مواجهة تدبيره، فكأنّه تبليغ عام، ليستعدوا ويتدبروا أمرهم فيما بينهم، وعدم ذكر (السحر) في هذه الآية قد يكون بسبب ذكرها في الآية قبلها (١٠٩) وقد أغنت، وقد يكون للنظر في ردهم على الموضوع. والله أعلم.

الثانية عشرة: للجار والمجرور أثره في توجيه دلالة قوله تعالى:﴿ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ﴾ [القصص/٨٢]، فيما استدعت الدلالة الحذف في قوله تعالى:﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾[الرعد/٢٦].

فرأى الغرناطي أنّ«آية القصص فمنصوص فيها أنّ الذين تمنوا حال قارون ومكانه هم القائلون: ﴿ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ﴾، فإنّما قالوه عالمين بأنّ الله سبحانه بسط لقارون ما بسط فعلموا أنّه القابض والباسط وأنّه لا يمنع عن أحد ما بسط له»[3].

فيما رأى ابن جماعة أنّ آية القصص«تقدّمها قصة قارون، فناسب الحال الثاني أنّه يبسط الرزق لمن يشاء مطلقًا لا لكرامته كقارون، ويقبضه عممّن يشاء لا لهوانه كالأنبياء الفقراء منهم. وأمّا بقية الآيات فمطلق من غير تعيين كأنواع بعض الحيوانات من الآدميين وغيرهم»[4].

ويذهب البقاعي إلى أنّه «لمّا كانت القصة لقارون، وكان له من المكنة في الدنيا ما مضى ذكره،

(١) ملاك التأويل: ١/ ٥٦٣- ٥٦٤.
(٢) فتح الرحمن: ١٤٧.
(٣) ملاك التأويل: ٢/ ٧٠٥.
(٤) كشف المعاني: ٢٩١- ٢٩٢.

وكانت العادة جارية بأنّ مثله يبطر وقد يؤدي إلى تألهه، قال منبهًا بالإيقاع به على الوجه الماضي أنّه من جملة عبيده، لا فرق بينه وبين أضعفهم بالنسبة إلى قدرته: من عباده»[1].

ويُحتمل في الآية الأولى(القصص/٨٢) حدّد الرزق لمن يعبدونه ويتصفون بالعبادة الحقيقية، وقد يكون المقصود كلّ منَ عبدَ الله تعالى حقًا أو خداعًا. وبما أنّ خلق الله تعالى فئتان: المؤمنون ومنهم الكافرون، فالتحديد لأي الفئتين يجعلك تستبعد الفئة الأخرى.

بينما في الآية الثانية(الرعد/٢٦) فتشمل جميع الخلق من دون تحديد إن كانوا يعبدون الله تعالى أم يعبدون غيره، ويشمل كذلك الحيوانات؛ لأنّها من الخلق، ورزقها على الله تعالى. وقد يكون استبعاد ﴿ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾؛ لأنّ الحديث فيها مرتبط بسابقاتها من الآيات التي ذكرت صفات عباد الله الصالحين وغيرهم ممّن نقض عهد الله تعالى وأفسد في الأرض.

فيقول تعالى لهم: أنّه الباسط للرزق لمَن يشاء من خلقه عامة دون استثناء؛ لأنّها اختبار في الحياة ومتاعٌ للآخرة.

فهي تعني أنّ الرزق مبسوط للجميع؛ ذلك لأنّ الرزق هو دائرة الاختبار للإنسان في الحياة، فَبَسْطُ الرزق اختباره أكبر من تضييقه؛ لأنّ السعة في الرزق يتبع حرية التصرف والتمتع في الدنيا، وهو أحد أسباب المعصية والإفساد في الأرض.

الثالثة عشرة: أضاف الجار والمجرور في قوله تعالى: ﴿ لِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ ﴾ [الجاثية/١٢] دلالة انفرد بها عندما حُذِفَ من قوله تعالى: ﴿ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ [الروم/٤٦].

وقد تعددت آراء العلماء في تأويل هذه المسألة، إذ رأى الخطيب الإسكافي «أنّ الهاء في قوله: ﴿ فِيهِ ﴾ عائدة إلى البحر، وقد ذكر في سورة الجاثية فعاد إليه الضمير، وهو قوله: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ ﴾ ولم يتقدم للبحر ذكر في الآية التي ذكر فيها جري الفلك في سورة الروم، وإنّما نبّه على النعمة بالرياح وإظهار آياته فيها فقال: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ ﴾ أي باجتلاب السحاب واعتصاره للأمطار، وهو الذي يذيقنا من رحمته مع ما تلقّح منه الأشجار في وقته وقال: ﴿ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ أي: بالرياح إذا أذن الله تعالى، وهذا ممّا لا إشكال فيه»[2]. وقد وافقه الكرماني[3]، والغرناطي[4]، وابن جماعة[5]، والأنصاري[6] هذا الرأي.

ويحتمل أنّ ما جاء في سورة الجاثية تأكيدًا على أنّ جري الفلك في البحر فقال: ﴿ فِيهِ ﴾ ليخصص الحديث عن البحر. بينما في آية سورة الروم فالحديث

(١) نظم الدرر: ٥/ ٥٢٣.

(٢) درّة التنزيل: ٢/ ٩٨٩- ٩٩٠.

(٣) ينظر: البرهان: ١٤٦.

(٤) ينظر: ملاك التأويل: ٢/ ٩٤٠.

(٥) ينظر: كشف المعاني: ٢٩٥.

(٦) ينظر: فتح الرحمن، المسألة (٦): ٣٢٧.

عام يخبرنا فيه بجريان الفلك بأمره. ومن المعلوم أنّ الفلك تجري في البحر فلا حاجة لذكر البحر، فهو إعلام بأنّ جريان الفلك بأمر الله تعالى؛ ولذلك وردت (لام التوكيد) مع الفعل المضارع ﴿وَلِتَجۡرِيَ﴾. ثمّ إنّ في سورة الروم بيان لأحدى آيات الله تعالى في الكون وهي (الرياح) وقد وضّح تعالى أسباب إرسالها بأنّها مبشرات بقوله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٖ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَلِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ بِأَمۡرِهِۦ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [الروم/٤٦]، وهي سبب لتذوق رحمة الله، زيادة على أنّ سبب إرسالها لتساعد في جريان الفُلك (السفن) في البحر بعد إذن الله تعالى حتى يبتغوا من فضله ولعلهم يشكرون. فليس بالآية حاجة إلى ذكر ﴿فِيهِ﴾؛ لأنّه من المعلوم أنّ الفُلك تجري في البحر. والله أعلم.

الخاتمة

يعدُّ (الجار والمجرور) متلازمة دلالية واضحة في المتشابه اللفظي، وقف عليها العلماء بحثًا للإفادة من وجودها في النصّ القرآني، وكانت مدار تعدد آراء العلماء في تأويلهم للمتشابه اللفظي.

وكان لوجود حرف الجر أثر مباشر على دلالة مجروره، ونتيجة تعدد دلالات حروف الجر في الدرس النحوي، فقد تركت أثرها على دلالة ما بعدها، وهذا يؤكّد أنّ دلالة حرف الجر هي التي تحدد دلالة مجروره، ولولا هذا التعدد الدلالي في الدرس النحوي، لما تعدد ما بعده.

إنّ التنوع الدلالي الذي تركه العلماء كان نتيجة مرونة النصّ القرآني وقدرته على فسح المجال للتأويل الذي لا يصطدم بثوابت الشريعة، وقوانين اللغة، إذ تمكنوا من صناعة مقاربات دلالية تجعل من النصّ القرآني ذخيرة دلالية تنبض بالحياة والتجدد لكّل زمان ومكان.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١- البحر المحيط، أبو حيّان الأندلسي(ت٧٤٥هـ)، ج١٠، حققه: ماهر حبّوش، دار الرسالة العالمية، ط١، ١٤٣٦هـ- ٢٠١٥م، الجمهورية العربية السورية.

٢- البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجّة والبيان، برهان الدين الكرماني(ت٥٠٥هـ)، تحق: د.السيّد الجميلي، د.ط، مركز الكتاب، القاهرة، مصر، د.ت.

٣- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، الفيروزآبادي(ت٨١٧هـ)، تحق: محمد علي النجّار، المكتبة العلمية، بيروت- لبنان، د.ت.

٤- تفسير الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل وبحواشيه أربعة كتب، الزمخشري(ت٥٣٨هـ)، تحق: محمد عبد السلام شاهين، ط٤، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م

٥- درّة التنزيل وغرّة التأويل، محمد بن عبد

الله المعروف بالخطيب الإسكافي(ت٤٢٠هـ)، دراسة وتحق: محمد مصطفى آيدين، ط١، جامعة أم القرى، ١٤١٨هـ.

٦- الدرّ المصون في علوم الكتاب المكنون، السَمين الحلبي(ت٧٥٦هـ)، تحق: أحمد محمد الخرّاط، دار القلم، دمشق، ط٣، ١٤٣٢هـ- ٢٠١١م.

٧- فتح الرحمن بكشف مايلتبس في القرآن، أبو يحيى زكريا الأنصاري(ت٩٢٥هـ)، تحق: محمد علي الصابوني، ط١، دار الصابوني، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م .

٨- كشف المعاني في المتشابه من المثاني، بدر الدين بن جماعة(ت٧٣٣هـ)، تحق: د. عبد الجواد خلف، ط١، دار الوفاء، سلسة منشورات جامعة الدراسات الإسلامية، كراتشي- باكستان، ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م.

٩- ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي(ت٧٠٨هـ)، تحق: سعيد الفلاح، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.

نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين البقاعي(ت٨٨٥هـ)، تحق: عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، ط٣، بيروت- لبنان، ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م .